نِفْسي

لقد سمعت أحدهم يقول أنّ كل شعوب العالم تنظر إلى المستقبل بينما نحن، العرب، فإنّنا ننظر إلى الماضي. طبعًا هو يقصد أننا نبكي على أطلال الماضي البعيد.

هل تعرفون، "نِفسي" بكثير من الأشياء من الماضي.

نِفسي أرجع إلى الصف الأول وأحمل حقيبتي صباحًا، ذاهبًا إلى المدرسة مشيًا على الأقدام في أيام الحر والبرد.

نِفسي أن أحل الوظائف البيتيّة، وأنسخ الدّرس مرتين، وأن أحفظ جدول الضّرب، وأن أردّد أغنيّة "ماشي ماشي ماشي، على مدرستي ماشي..."

نِفسي أن اترك مقعدي الدّراسي، الملاصق لمقعد صديقي، حاملًا دفتري كي يقوم المعلّم بتصحيح الوظيفة، ويكتب لي "أحسنت". وأعود إلى مقعدي "نافشًا ريشي" أمام الطّلاب الآخرين، مُفتخرًا بعلاماتي.

نِفسي أن أجلس مع أمّي وأبي وأن أتحدّث إليهما دون توقّف ودون ملل، وألّا ينهرني أبي وأن يدعني أكمل كلامي حتّى النّهاية.

نِفسي أن أخرج من البيت صباحًا ذاهبًا إلى الملعب التّرابي في حارتنا، وأن ألعب كرة القدم مع أصدقاء الطّفولة. وأن نقع على الأرض وأن تُجرح أقدامنا وأيدينا، وأن تسيل الدّماء كما كان الأمر في صغرنا.

نِفسي أن أتجوّل في السّهول والوديان والمزارع، وأن ندخل أراضي المزارعين ونقطف، سرًّا، الفواكه والخضار، العنب والجوافا وغيرها..

نِفسي أن أعود مساءً بعد يوم طويل من التّجوال وأدخل إلى البيت بملابسي المتّسخة وسط صراخ أمي قائلة: "دغري على الحمام".

نِفسي أن أذهب إلى عرس من أعراسنا القديمة حيث كان النّاس يَسِدّون الشّارع بواسطة شاحنة من شاحنات الجيران، نرقص ونغنّي على التّراب والحجارة دون خوف أو وجل، ببساطة وقناعة.

نِفسي أن أسمع مغنّي الأعراس القدماء البسطاء الذين يقطعون أغانيهم لتحيّة أبي فلان، وتكريم أبي علّان أو للإعلان عن سيارة "بيجو" تغلق الشّارع.

نِفسي أن أذهب إلى دار السّينما لمشاهدة خمسة أفلام بتذكرة واحدة. أفلام كراتيه وأفلام هنديّة لا تنتهي أبدًا.

نِفسي أن أذهب إلى البحر لأسبح وأستمتع برؤية الأمواج، وأشمّ رائحة المياه المالحة الصّافية دون تلوّث أو أوساخ.

نِفسي أن أنام مع أخواتي وأقاربي على سطح البيت في أيام الصّيف الحارّة، نسهر حتى ساعات اللّيل المتأخرة لنعدّ النّجوم ونحصيها ونمنحها أسماء غريبة عجيبة، ولنصحو في اليوم التّالي وقد لفحت وجوهنا شمس الصّباح الحارّة، لنجد أمي قد حضّرت لنا الشّاي والإفطار الشّهيّ.

نِفسي أن أعود طفلًا في يوم العيد، يشتري لي أبي الملابس الجديدة لألبسها في الصّباح بعد ليلة طويلة من الانتظار، وأخرج صباحًا إلى أقربائي لجمع "العيدية" لشراء ما لم نستطِع شراءه في الأيام العادية.

نِفسي الكثير من الأشياء، نِفسي أن يعود بي الزّمن إلى الطّفولة والصّبا، إلى البراءة والسّذاجة، إلى الطّيبة والكرم.

نِفسي أن أرجع صغيرًا، وأصادق أولادي وأعرف كيف يفكّرون وبماذا يفكّرون كي أفهمهم أكثر وهم كبار.

نِفسي أن أسير في الشّارع وأن التقي بنفسي صغيرًا وأتحدّث مع شخصي وأقدّم نصائحي لنفسي عن نفسي. وأوصي لنفسي أن تشتري أسهم "أبل ومايكروسوفت وفيسبوك" حتى أكبر غنيًّا.

هل فهمتم الآن الحكمة من كون عمر الإنسان لا يتجاوز الثّمانين على الأغلب؟ لو عاش الإنسان مائتي عام لجُنَّ من فرط الحنين إلى أشياء لم يعد لها مكان.

من كثر ما في نفسي أشياء أصبو لتحقيقها سَدَّت نفسي.

دامت نفوسكم طيبة

أ.أيمن جبارة